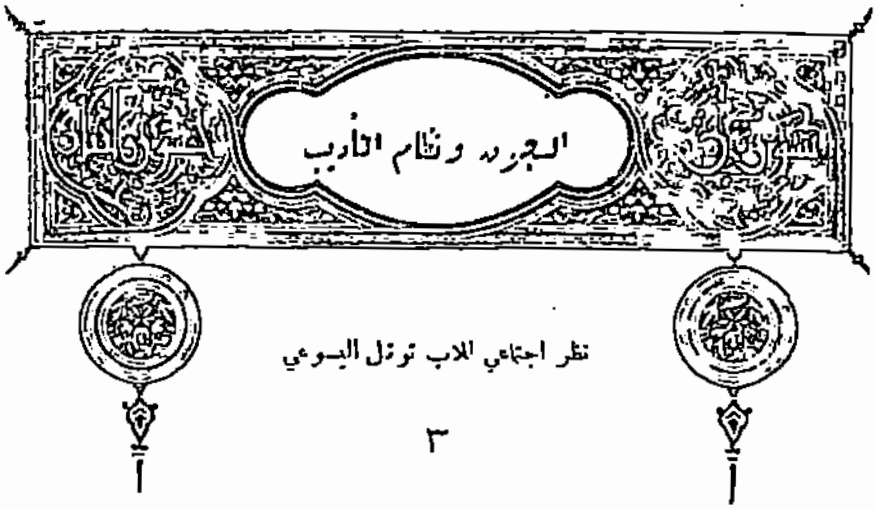

نظر اجتماعي للاب توفل اليسوعي

٣

دار الاصلاح

قلنا ان العوامل الدافعة الى ارتكاب الجرائم بعضها مادية وبعضها معنوية . فمن الطبيعي ان تكافح تلك العوامل باضدادها ، فيبذل اولياء الامر جهدهم : اولاً في العناية بصحة المعتقلين الجسدية ، وفي الاهتمام بسكناهم وطعامهم ولباسهم ؛ وثانياً بصحتهم العقلية والادبية ، وذلك بتعليمهم الديني والمدني وتشغيلهم ؛ واخيراً في مساعدتهم على التوقي من الانتكاس في سالف عاداتهم بعد قضائهم مدة حبسهم ، ورجوعهم الى الحياة بين الناس .

صحة الابدان

انها منوطة اولاً بالسكنى . ومن البديهي ان شروط البنايات الصحية واحوالها تختلف مع اختلاف البلاد وسكانها وطبيعة اقاليمها . فان ما يصلح للسكنى في بلادنا قد يكون مضراً ، غير كاف ، في البلاد الشمالية ، حيث الشمس لا تظهر الا محجوبة وراء ستر كثيف من الضباب ؛ واذا ارسلت اشعتها فنورها ضئيل وحرارتها قليلة . فيضطرون من ثم الى الاكثار من عدد المنافذ وتوسيعها ، والى اشادة السجون في امكنة مشرفة على الرياض .

اما في بلادنا فلا لوم على من ضيق منافذ النور على اشعة شمس تدفق منها كالانهار ، صيف شتاء ، الا بعض الايام القلائل ؛ ولكن حالة بنايات السجون

على ما هي في « الرمل » دون ما هو معهود في مثلها من البلاد الراقيـة ، فيما يخصّ المجال الضروري لحركة السجناء واستنشاقهم الهواء . فـلا بدّ من ان يُلحق بالبنايات التي ليس لها ممشىً ، كالبناية الغربية ، وبناية المرضى ، وبناية النساء ، فناءٌ او فسحةٌ للسير .

اما الطعام فلا يكفي ان يعهد بامره الى ملتزم يقدّمه لقاء مبلغ يتقاضاه ، ولا مرجع لـه سوى الادارة في السجن . لان الادارة ، على استقامتها ، لا يسعها القيام يومياً بالتفتيش عما يقدّم الى السجناء من الاغـذية ، فضلًا عن ان الاعمـال العادية تسبب الملل وقلة الاكتراث مع طول الزمـان ، والسجناء لا يمكنهم التظلّم لدى اولياء الامر مباشرةً . فلا بد من ان تسهل الحكومـة سبيل زيارة السجون وافتقادها لمن تنتدبهم هي او تنتدبهم الجمعيات الخيريـة الى هذه المهمة . ومن الجاري في البلاد الراقية ان يعطى السجناء ثياباً خصوصية قد يقبلها الفقراء بالشكر لانهم يتسنى الحاجة الى ما يسترهم ويدفئهم . اما الموسرون ، فان كان ولا بدّ من ارغامهم عليها ، فسوف يعتادونها كما يعتادون سائر عقوبات السجن القانونية . رأينـا السجناء في فلسطين يشتغلون في ترميم الطرق وبعضهم لابس ثياباً خصوصية تميزهم عن سائر الناس ، وتحول دون تغلغلهم في الجماعات ومواراتهم وهربهم . اما سجناء بلادنا ، فالفقراء منهم واحداثهم خاصة هم في حالة تعرّ شائن مما يحط من قيمة الانسان الى درجة يتعذّر معها الحصول على بواقي الكرامة الشخصية الضرورية لممارسة الخير .

ومن شروط الاصلاح في سكنى السجنـاء تقسيمهم على اساس اخلاقهم وجسامة العقوبة وطبيعة الجريمة ، لئلّا يتسرّب الداء من الشقي المقترف الكبائر وما الفه من الشرّ بغرور الشهوة ونزعات الاميال الشريرة ، الى السجين المعتقل لعلل عرضية ، ليست ذات اهمية عظمى . وصف سليم بك عنحوري ، شاعر الفيحاء ، تلك الحالة البينة فقال في احد السجناء :

طرحوه في السجن ، بين مئات من رجال زعانف سفهاء .
حرّضوه على ارتكاب الدنايـا والمساوي ، حتى بفكّ الدماء .
كان قبـلًا يخاف سرقة مـال ؛ اصبح اليوم اعظم الاشقيـاء .
تلك حال السجون ، من الف عام ، في بـلاد الجهـال والاغبيـاء !

ولا بد من مراعاة حالة السجناء العقلية والوقوف على درجة قابليتهم للاصلاح ، عند توزيعهم في المساكن ؛ فيفصل المحكوم عليهم بمدد قصيرة عن المحكوم عليهم بمدد طويلة . ومن الواجب الا يجاوز عدد المعتقلين الخمس مئة لئلا يتعذّر ضبطهم او صرف العناية الكافية بهم . وقد يفيدنا ان نروي في هذا الصدد ما يجري في السجون المصرية اخذاً عن الحكيم باشي علي حلمي بك في كتابه « مصر والنظم التأديبية » . قال (ص ١٢٥) :

«وتقسيم السجون المصرية الى عمومية وثانوية ومركزية يحقق فصل فئات المحكوم عليهم بمدد قصيرة عن المحكوم عليهم بمدد طويلة . وعلاوة على ذلك فان السجون المصرية تشدّد في فصل فئات المسجونين في السجون العمومية والثانوية فصلاً تاماً .

فاولاً — النساء مفصولات عن الرجال باقسام خاصة .

ثانياً — ارباب السوابق مفصولون عن غيرهم من المحكوم عليهم لاول مرة فصلاً تاماً في النوم والرياضة والاشغال ولهم علامات مميّزة على ملابسهم .

ثالثاً — حديث السن مفصول ايضاً في النوم ، وبقدر الامكان في الشغل .

رابعاً — المحكوم عليهم لاول مرة مقسمون الى فئتين ، فئة المحكوم عليهم باقل من سنة ، وفئة المحكوم عليهم بسنة فاكثر ويميز بينهما بعلامات على الملابس .

خامساً — المنقولون من اللبانات [اي الامكنة التي يودع فيها المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة] الى السجون العمومية لبلوغ سن الستين ، او لاسباب صحية مفصولون عن غيرهم .

سادساً — المحبوسون احتياطياً ، مفصولون فصلاً تاماً عن غيرهم وهم يلبسون اما ملابسهم الاهلية او ملابس خاصة بهم . »

وخصصت انكلترة سجوناً خففت فيها ما امكن العقاب على من اتى على ذنب لاول مرة . فاذا احسن سلوكه في السجن سُمح له بحضور الموسيقى وسماع المحاضرات ، وتناول الطعام حول المائدة مع غيره . وتلك المائدة يتصدرها احد السجناء . هذا ما يعمل به في سبيل الاصلاح المادي في البلاد الراقية . لكنه دون الوسائل الادبية نجعة وفوذاً .

التربية المدنية والمدرسية

قال الدكتور غراسه المذكور سابقاً (ص ٨٤٢) : من اراد اصلاح البشرية والتقليل من عدد المجرمين ، عليه ان يعلم وينشر مبادي الادب الاخلاقي الطبيعي والانجيلي ؛ عليه ان يكشف للجميع على صورة الخير ، ليحبوها ويعشقوها ويتوقوا اليها ويتمثلوا بها ؛ عليه ان يبث فيهم حب العائلة والوطن ، وينزع من قلوبهم ايثار الذات وروح الانانية ، ويردعهم عن الانهماك في

الملذات ؛ عليه ان يُريهم ما وراء الموت ، كمال الحياة واكليلها . واعلم أن التعليم الادبي الاخلاقي انما هو الشرط الاساسي والعامل الاقوى لحفظ صحة الجسد والنفس . فهو الالف والياء والبداية والنهاية في سفر علم العقوبات القضائية .

فيجب من ثم اتخاذ التدابير اللازمة لتعليم السجناء الديني والمدني . واننا اذا نظرنا الى ما يجري في هذا السبيل في سجون بلادنا لا يسعنا الا الاسف لاهمال الحكومة امر التعليم في السجن وعدم تسهيلها على رجال الدين ، في بعض الاحيان ، زيارة السجناء . والكاهن يدخل السجن ليخدم الامة بابنائها المعتلين ، ولا اقل من ان تذلل بوجهه العقبات ووقته قليل وعدد السجناء كثير .

لاضرب صفحاً عن ذكر الثابات ؛ وحسبي رواية ما كتبه علي حلمي بك عن التعليم الديني والمدني في السجون . وان في كلامه لبرنامجاً جديراً بان يُتخذ قاعدةً لوضع نظام جديد في سجون بلادنا فلا تكون قفصاً من حديد ولا قبراً للاحياء ؛ ولا جحيماً على الارض ؛ ولكن دار التأديب والاصلاح قال :

ان التعليم الديني والمدني عام في سجون اوربة اما واجبات القسيس بصفته واعظاً ومعلماً ومهذباً وقانون التعليم في مدرسة السجن فندون في نظام السجون في انكلترة واليك بعض بنوده :

على قسيس السجن ان يكتب دفاتر الوقائع الخاصة بعمله ؛ ان يقدم تقريراً سنوياً عن الحالة الدينية والخلقية في السجون ومدرستها . وله الحق في اي وقت كان بتقديم اقتراح للاصلاح ؛ ان يحضر يومياً الى السجون ؛ ان يناظر وسط المسجونين عند اعتقالهم والافراج عنهم ؛ ان يزور كل سجين على حدة من وقت لآخر في مدة سجنه ويبذل كل مجهود لاصلاحه ؛ ان يقيم الصلاة للمرضى بالمستشفى يومياً ويزور الموضوعين في غرف الجزاءات ؛ أن يخصص جزءاً عظيماً من وقته لزيارة وتعليم السجناء ؛ ان يجتر من مات من السجناء ؛ ان يسعى لايجاد العمل اللازم للمسجونين عند الافراج عنهم .

وفي ايطالية يجرون على هذا النظام تقريباً .

اما وسائل التعليم فهي : درس في المساء من الساعة السادسة الى الساعة السابعة والنصف المساعدة في استعادة الأنفة والكرامة والاحترام الشخصي بتكوين فرقة تسمى فرقة الشرف تمتاز بعلامات خاصة ، يسمح لها باداء العمل اليومي من غير مراقبة والاكل على المائدة جماعات خاصة ، وقراءة الجرائد . وفي مساء السبت الاجتماع ولعب الشطرنج والداما ، وتقام في السجون صفوف مدرسية يشمل برنامجها مواد تعلم لثلاثة اشهر على معدل ساعة وربع في كل

الاسبوع الخ . . . ومثل ذلك النظام جارٍ في البلاد الاوربية وجدير بان يتخذ قاعدةً للتعليم في سجون بلادنا .

وفي قرار قدمه علي حلمي بك الى الحكومة المصرية في يناير سنة ١٩٢٥ قال :

« بعد زيارتي سجون بعض الممالك رأيت ان النفيس فيها في كل سجن هو من العمال الداخلين في هيئة الموظفين حتى ان قسمي بعض السجون كانوا يرافقونا في زيارتنا . اذ ان البلاد الاوربية لم تقرر هذه الوظيفة الا لما تبينته من فوائدها ، بالنظر لما للوعظ الديني من التأثير على نفسية الناس ؛ وان تجول الوعاظ لا يؤدي الغرض الذي يرجى مثل واعظ مقيم بنفس السجن ؛ فان هذا يمكنه علاوةً على الوعظ ان يتدخل في نفسية كل مسجون على حدة وبذلك يكون عوناً على تقويم اخلاق المسجون بما يفيده في الحال والاستقبال ؛ وعلى كل فمع عدم الاحتياج لطول البيان في هذا الخصوص ، فاني لا ارى اقل مانع يمنعنا من الاقتداء باوربة في هذا الصدد . فاني في طلباتي التي اتشرف بتقديمها عن مشاهداتي ، لا يفوتني ملاحظة ما هو جارٍ في اوربة ولا يطبق عندنا . اما بخصوص المدرسة فارى ان يخصص لسجن مصر على سبيل التجربة غرفة ككتاب يوضع فيه الاولاد لغاية سن الخامسة والعشرين ، الذين يتعلمون القراءة والكتابة ، مدة ساعتين في اليوم ، ساعة في الصباح ، وساعة بعد الظهر ، حتى لا يحرموا من الاشتغال بالورش .

ونتيجة التعليم هو تعيين واعظ ديني مسلم لكل لبان ، واصلاحية ، ومسجن عمومي . ويكتفي للديانات الاخرى بالوعاظ المتنقلين بالنظر لقلة عدد المسجونين من اتباع هذه الديانات . »

هذا وفي لبنان يكاد عدد المسيحيين السجناء يعادل عدد المسلمين فلا بد من وفائهم حقهم من العناية الدينية ، ولا اقل من ان يفتح باب السجن بسرعة وسهولة للكاهن القادم لالقاء المواعظ ولاقامة الصلاة .

اما التعليم المدني فيجب ان يشمل الاميين اولاً فيعطون الكتب للقراءة ويقام فيهم استاذ وقد يسهل ايجاد هذا الاستاذ ما بين السجناء . ووجود خزانة للكتب من الضروريات في السجون لغير الاميين . فلا يخلو سجن من سجون اوربة من خزانات للكتب المتنوعة ، وقراءتها مسموحة للجميع بلا قيد ولا شرط . ولا حاجة الى الاسهاب في تبيان منافع قراءة ومطالعة الكتب الصالحة فانها تغيّر احوال السجين النفسية وتصرف ذهنه الى المفيد مما يقرأه . ولا بد من انارة بعض الغرف بالنور الكهربائي فتُستطاع القراءة حتى ساعة النوم

وان وجود رجل الدين في السجون ، واقامة الصلاة والقاء الوعظ والمحاضرات واعطاء الدروس ، قد يقتضي مكاناً خاصاً واسعاً ، فيه مقاعد ، لائقاً بالاجتماع . وليس من العسير ان يُبنى ذلك المكان في سجن بيروت ، فيكون متصلاً بسائر البنايات . ويقيم فيه رجل الدين ، وتوضع فيه خزانة الكتب . ويُتاح للمعتقلين ان يزوروا المرشد في ساعات معهودة . وان ما تقتضيه هذه النفقات لا يكاد يذكر تجاه ما يعود به من الخير على البلاد باصطلاح المجرمين وتقليل عدد الجرائم .

وذلك لن يتم الا عن اتفاق مع الرؤساء الروحيين وممثلي الجمعيات الخيرية وسوف يؤدّي تنوّع الاديان واحتكاك المذاهب الى مواقف حرجة ، فتوضع شتى العوائق في اعمال رجال الدين الداخلين السجون للقيام بمهمتهم ، من اي دين كانوا . والسجين دامي الفؤاد ، موغر الصدر ، كلمة واحدة تثير غضبه واحتدامه وتلقي شرارة في السجن ان حلّت في غير محلها ، والسير بالسفينة بين الصخور والبحر مائج يحتاج الى يد رجل خبير ، فلا بد من انتخاب الرجال الاكفاء للارشاد في السجون فلا تفتح ابوابها لاي واعظ كان . ولكن مع اتخاذ الاحتياطات الكافية ، لا بد من فتح السجون لرجال الدين ، وروح التضامن بين السلطتين الروحية والزمنية ، وصدق النية المتبادلة ، والغيرة على مصالح الامة سوف ترشد الى معرفة الطرق الاقرب منالاً لتحقيق الاماني . فيُسنّ قانون التعليم الديني والمدني في السجون ، ضامناً حرية الاشخاص ، مؤدياً الى الخير العام . ومن العسير جداً تقرير ذلك القانون مفصلاً بكامل بنوده قبل اجرائه في الواقع لان الخبرة هي المعلمة في هذا الدرس العويص ولكن لا بد من وضعه اجمالاً وعلى وجه العموم مع ترك السبيل مفتوحاً الى تغييره مع الظروف . وعدم وجود قانون التعليم في السجون نقص عظيم لا ترضى به لنفسها امة متمدنة .

الشغل في السجون

البطالة تولد المفاسد . اما الشغل ففيه الحركة والبركة . وقد يحق للحكومة

ان تفرضه واجباً لازباً على السجناء ، ايًّا كانوا ، لانهم في حالة العقاب والتكفير . والشغل فوائده العامة لحفظ النظام وانتاج عمل اليد . وان يكن بعض السجناء يفضلون البطالة على الشغل ، فمنهم الكثيرون يلتمسون السبيل الى العمل في صنعة تعود عليهم بالتسلية والمنفعة . واذا ما ذاق المسجون طعم مكسبه ، فلن ينفك عن الاجتهاد والعمل املاً بزيادة المكافأة .

على ان امر تشغيل السجناء متصل بمشاكل عديدة مترامية الاطراف . وورشة الشغل تقتضي مراقبة خاصة ، وتعاهداً مع من يضمن تقدمة المواد الاولية وابتياع منتوجات العمل باثمان تعود بالنفع عليه وعلى السجناء . ذلك مما يفرض على اولياء الامر الالمام باطراف المسألة فلا يتم الا بعد الدرس الطويل واختبار طرق التشغيل ، والتمييز بين خيرها وشرها .

اما في سجن الرمل فلا شغل سوى الحلاقة والخياطة والتكنيس وبعض اعمال الخدمة لعدد زهيد من السجناء . اما السواد الاعظم منهم فهم قاعدون يصلون آناء ليلهم باطراف نهارهم ، بطالين . وكذلك ايضاً غالباً في سائر سجون البلاد السورية اللبنانية .

وحصرت حكومة فلسطين سجناءها في عكة وفي القدس فلمت شعث السجون وقللت من عدد الموظفين ، وسنت قانون التشغيل واجرته بكماله . والسجناء ثلاثة اقسام ، وشغلهم اما في الاشغال العامة ، واما في الصنائع . وقد تراعي الحكومة في معاملتهم نظام الضبط والتشجيع والمكافأة الى ان يفرج عنهم . فمن كان منهم في القسم الاول كُبّل بالحديد ، والجئ الى الاشغال الشاقة خارجاً عن الحبس ، مدة ستة اشهر ، ومن بعدها يستطيع ان يرقى الى القسم الثاني ثم الى الأول . والشغل في القسم الاول اخفّ وطأة واوفر ربحاً . فيه الحدادة والنجارة والحياكة والخياطة وصنع السلال الخ . وقد يجعل تقسيم السجناء غير ذلك من الامتيازات فيما يخصّ النوم والطعام والثياب وتكرار زيارة الاهلين والاصدقاء والمراسلات واعطاء المال عند الافراج وعندهم اساليب دقيقة لمراقبة الاعمال والمحاسبة عليها ، بواسطة نقط يومية يرسمها المراقبون بغاية ما يمكن من العدل والاستقامة .

وان ما نقوله على السجون اجمالاً يقتضي التفصيل فيما يخص سجن الاحداث والنساء . وهذه الناحية ما زالت الى يومنا مظلمة في بلادنا ، لا يدخلها شعاع شمس الله ولا تقتيش البشر الا نادراً . وحسبنا الاشارة بما يمكن الحكومة ان تستغله من الفوائد لابنائها وبناتها المعتقلين اذا ما عهدت بامرهم الى رجال اختصاصيين ، اعني بهم الرهبان والراهبات فان بعضهم قدموا حياتهم لله توالى ليصرفوها في نشد اخروف الضال وتأديب الجهال وتعليمهم ، واصلاح المعتقلين في السجون . وقد يطول بنا الحديث ، اليوم في سرد اخبارهم والبعض منهم يعهد اليهم بامر حراسة السجون او العناية باطعام السجناء . ولا يسعنا الا ذكر راهبات الراعي الصالح المخصصات لايواء الشاردات والتائبات ، والرهبان القائمين على دور تأديب الاحداث في اوروبا . وقد تجري عليهم الحكومات النفقات عن كرم واريحية لما تعهده في مشاريعهم من الاعمال العائدة بالخير على البلاد .

وماذا بعد ؟

تصور ايها القارئ اللبيب رجلاً او امرأة او شاباً او صبياً قضى في السجن اشهراً او اعواماً ، مفترقاً عن ذويه منعزلاً عن الحياة ، وقد ذاق الامرين من فقدان حريته ومن سائر عقوبات السجن ، وهو اليوم يعود بين الناس ، ولا رأس مال بين يديه ، ولا اعتبار له عند الاقارب والمعارف ، ولا ثقة فيه من العالم ، وربما صادف عند خروجه الظروف المقوتة ذاتها التي كانت ادّت به الى الحبس : العوز المدقع الذي اغراه بالسرقة ، العشرة الشريرة التي اثارت في قلبه الضغائن ودفعته الى القبائح ، الديون المتراكمة عليه مع فوائدها . . . فمن يفرج عنه من هذه القيود الادبية بعد اخراجه من سجون الحكام .

قد طالما اهتمت الامم المتمدنة بهذا المشكل كما اهتمت بغيره من المشاكل التي ينسجها القانون القضائي على منوال الحياة . وعنيت بانشاء وتشجيع الجمعيات المؤسسة للمساعدة على اصلاح السجناء بالاشراف عليهم وهم في السجون وعلى مؤازرتهم عند خروجهم منها . فتسعى بان توجد لهم عملاً او

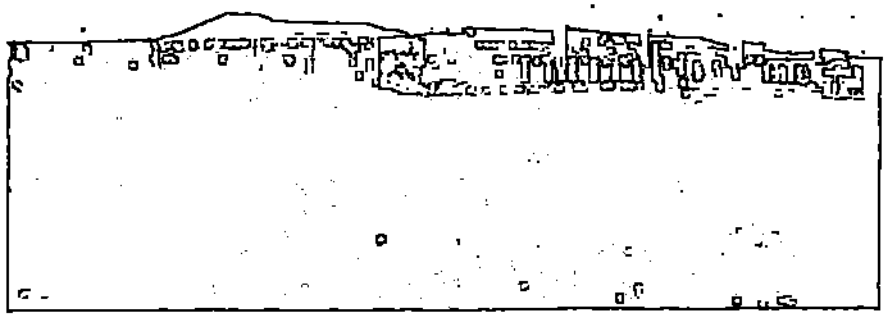

سجن الرمل – نظرة عامة

لا تخلو حديقة السجون في بيروت من بعض الزهور بدنيا السجناء تحت مراقبة الحراس

ترجعهم الى عملهم السابق ، وتصرف الهمة الى ترتيب سكناهم مع طعامهم ولباسهم ، وتهيئهم بعض النقود او غير ذلك من المواد التي تفتح لهم باب العمل والمعيشة ، كبضائع للمتجر ، وتجهزهم بوسائل النقل والسفر ، وتتفق عليهم ما تقتضيه الحالة لاستخدامهم ، وتبتاع لهم آلات الشغل وتدفع عنهم الغرامات ، وتعاون عائلاتهم وتوكل امر مراقبتهم بالمحبة واللطف وارشادهم بمن تعهد فيهم الكفاءة لذلك من اعضائها .

وحيث لا يقوى كاهل الجمعيات الخاصة على القيام بهذا العبء الباهظ فالحكومة نفسها تشكل لجنة تلحقها بمصلحة السجون وتدعو رجالات البلاد ، وعلى الاخص الموظفين ، لمساعدتها على القيام بهذه المهمة المحمودة وتستنجد الجمعيات الخيرية في هذا السبيل . اما في بلادنا فما زلنا في الطور الاول من العمل في اصلاح حالة السجناء . على ان الرقي متواصل في البلاد بفضل رعاية وارشاد الدولة الافرنسية والآمال معقودة في ان حركة الاصلاح التي دبت في السجون سوف تقلب سحنتها المشؤومة فلن تكون موضع التكفير فقط ، ولكن دار الاصلاح والتأديب ايضاً . وعلى الامة واجب مقدس نحو ابنائها الضالين الباغين وهو ان تساعد ما امكنها على انشاء الجمعيات لمساعدة السجناء الادبية والمادية ، وعلى الصحافة والمجلات ان تلفت قراءها الى تلك الناحية المظلمة من نواحي حياتنا الاجتماعية ، فتستفيد للمصلحة التأديبية العامة من موازرة الجميع ويتحقق في سجون بلادنا وصف الشاعر ، وفيه خلاصة مقالنا وختامه . قال سليم بك عنحوري :

« لقد السجن زاجر لنزيه ، عن فعال الظلم والارذاء
فيه علم ، صناعة ، واشتغال ، يكسب المرء شيمة الادباء
محكم الوضع ، متقن الصنع ، زاه ، صالح العيش جالب للهناء
فيه كتب تهذب الخلق قسراً ، فيه طب يزيل اعضل داء
فيه قوم ليرشدوا كل غاوٍ بحديث ذي حكمة وجلاء .
هكذا السجن في بلاد حباها مالكوها ذرائع الارتقاء . »